

# الاتجاهات الحديثة

## عند المستشرقين الإيطاليين

### في الكتابة عن الرسول ﷺ والحسيرة النبوية

### المستشركة الإيطالية ريتا دي ميليو نموذجا

■ بقلم الدكتور محمد مختار المفتي

♦ نظرتها للسيرة النبوية:

المؤلفة الإيطالية التي عاشت وتجولت في مدن العالم الإسلامي، ولم تكتب عن الإسلام إلا بعد أن قرأته ودرسته وعاشته. كتبت مؤلفها "الإسلام ذلك المجهول في الغرب: الدين الإسلامي في ضوء القرآن والسنة" هذا الكتاب يسلط الضوء على عظمة الإسلام وسماحته، وجاء الكتاب في فصول سريعة بدأت بعرض لحياة الرسول ﷺ، أبرزت فيها المؤلفة الخصال التي اشتهر بها قبل البعثة النبوية مثل الصدق والأمانة، كما عرضت لحال المجتمع العربي قبل نزول الإسلام، وكيف جاء هذا الدين لكي يصلح الكثير من الأمور التي كانت تضرب في أساس هذا المجتمع، وليحوّله من مجتمع بدوي بدائي، إلى واحد من أعظم الحضارات التي شهدها التاريخ.

وربما كان أهم ما في هذا الجزء من  
عرض الحياة الأولى للرسول ﷺ هو أنه  
أفكار عدد غير قليل من المستشرقين، بل  
ردت عليهم المؤلفة وأكدت أن محمدا ﷺ  
هو نبي الله ورسوله، وأن رسالته منزلة من  
ابتعد عن الطروحات التي سادت في كتب

السماء. ولمحت إلى أن أول من اعترف بنبوّة محمد ﷺ كان مسيحياً، وهو ما استغله مفكرون آخرون ليقدحوا في النبوة ويشككوا فيها، عندما اعتبروا أن محمداً لم يكن إلا قسا متمرداً وناقماً!! والمؤلفة تطرح أفكارها بقوة وترد عليها بقوة أيضاً، من دون خوف أو تردد، بل لا تتردد في اتهام كتاب بني جلدتها بالغرور حيناً وبالجهل دائماً.

وضعت ريتا دي ميليو مقدمة لكتابها تعبر فيها عما يجيش في وجدانها من حب وتأثر بالدين الإسلامي، إلى الحد الذي يجعلك تتصور أنها اعتنقت الإسلام بالفعل. في مقدمة الكتاب تشير الكاتبة إلى أن الإسلام لا يمكن أن يحيط به أي كتاب مهما تضخمت صفحاته، فهو يستحق الكثير من الكتب، لكي تلم بجوانبه المتعددة، وهو كالماسة لها ألف بريق، وليس من الإنصاف اختصاره في كتاب واحد. وفي هذا إشارة إلى القضايا الكثيرة التي يمكن الكلام فيها عن الإسلام والسيرة النبوية والجوانب المتعددة له. ورغم نص الكاتبة على أنها تأخذ بمنهج التبليغ الإسلامي، فقد تعرضت في فصول كتابها المختلفة إلى كثير من القضايا الخلافية، قالت فيها رأيها بصراحة وجرأة، خاصة

قضية الجهاد، التي قدمت فيها مسوغات منطقية عقلانية للجهاد الإسلامي، بعيداً عن استغلال هذا الفرض الديني لأهداف سياسية وإرهابية. وفصلها في الجهاد، رغم أنه يتحدث عن الجهاد بوصفه "الحرب المقدسة"، وهو التعبير الذي لم يعرفه الإسلام، ولكنه منقول عن الغربيين في حروبهم الصليبية، ولكنها استخدمت المصطلح الغربي لكي تقرب إلى أذهان الغربيين هذا المفهوم، هذا الفصل عن الجهاد يعتبر من أجمل ما كتبه قلم غربي منصف ومحيد في هذه القضية.

فهي ترى فيه فرضاً على كل مسلم، ولكنها تقول: إن الحرب في الإسلام دفاعية، لأن القرآن ينهى صراحة عن الاعتداء على الغير، ويأمر المسلمين بالدفاع عن أنفسهم، وعن أموالهم، وبالتعااضد لنصر المستضعفين من المسلمين. تأخذ ريتا دي ميليو بالمنهج العزيز على الغرب، وهو النقدي التاريخي، الذي يحاول أن يتناول الأحداث في الجزيرة العربية، من خلال الترتيب الزمني لحدوثها، وتفسيرها ضمن السياق التاريخي لهذه العصور، من دون أن تعطي للبعد الغيبي ثقلًا كبيراً في التفسير، ورغم هذا فهي تصل إلى نفس النتائج التي يمكن

أن يصل إليها علماء الدين، اعتماداً على النصوص المقدسة وحدها، من دون تحليلها نقدياً وضمن السياق الاجتماعي والإنساني والتاريخي لها.

**ولهذا فإنه ليس من المبالغة أن نعتزف لها بفضل الاجتهاد في تفسير بعض أحداث التاريخ، التي تخص مسيرة الدين والحضارة الإسلامية. هكذا تبدأ ريتا دي ميليو بعرض حياة العرب قبل الإسلام وترسم خريطة للمعتقدات الدينية، التي كانت سائدة في هذه المنطقة، والتي تجاوزت فيها الوثنية إلى جانب عبادات غريبة للنباتات والأشجار والأشياء المختلفة، كما كان هناك انتشار محدود، وفي مواضع بعينها للمسيحية واليهودية، خاصة في اليمن وفي شمال الجزيرة العربية. في شبه الجزيرة العربية، وبخلاف تقديس الأشجار والنباتات، كانت هناك عبادات للأحجار المقدسة، وهي أحجار متحركة أو متساقطة أو صخور بارزة أو معلقة، تحمل الملامح البشرية، ولم يكونوا يعبدونها لذاتها، وإنما باعتبارها حاملة للألوهية أو رمزا لها. فكانوا يقيمون إلى جوارها الاحتفالات الدينية التي تشمل على القرابين وأعمال الحج والمهرجانات.**

أما البدو الرحل فكان لديهم على العكس محراب متنقل، يسمى القبة، وهو نوع من المراكب المقدسة، كانت ترافق القبائل في تنقلاتها السلمية أو الحربية. والكاهن، وهو شخصية بين القس والساحر، كان له تأثير كبير، وكانوا يستشيرونه في الأمور المهمة. وفضلاً عن الأصنام كان العرب يؤمنون بالجن، وهي مخلوقات غير مرئية، يمكن أن تكون طيبة أو تكون شريرة، ويمكنها أن تؤثر سلباً أو إيجاباً على حياة البشر.

وتشير ريتا دي ميليو إلى النظام السياسي السائد في الجزيرة العربية قبل الإسلام وهو تنظيم سياسي واحد هو القبيلة. كانت الصلة الوثيقة بين أبناء القبيلة الواحدة ناشئة عن وعي أبنائها بأنهم سلالة جد واحد مشترك. وهذا الجد، طبقاً للتراث العربي، سليل جد آخر، وهو زعيم مجموعة من القبائل، وهكذا من جد إلى جد نصل إلى شخصيتين رئيسيتين، تعتبران الأصل في أهل شبه الجزيرة كلها. هاتان المجموعتان الكبيرتان يمكن تقسيمهما إلى مجموعة الشمال ومجموعة الجنوب.

المجموعة الجنوبية هي القحطانية التي

تتنسب إلى جدهم قحطان، والمجموعة الشمالية تحمل اسم العدنانيين وتنسب إلى عدنان، ويسمون كذلك بالإسماعيليين، لأنهم يعتبرون عدنان سليلاً لإسماعيل بن إبراهيم. وكان أهل مكة يسиров على سنة باقي أهل شبه الجزيرة، ويعتمدون نظاماً اجتماعياً قائماً على القبيلة. وأكبر قبائل مكة التي كانت تضم معظم السكان، وبصفة خاصة الأغنياء وكبار القوم، هي قريش، ومنها الكلمة المعروفة في الإيطالية، القرشيين Quraishiti.

كان لمجلس القبيلة مقر، وله رئيس هو الذي يدير شؤون المدينة. وقد تكونت وتشكلت مهام توزعت على القبيلة، منها خدمة وصيانة الكعبة، ووفادة وسقاية وإطعام الحجيج، وهكذا دواليك. وقد وصلت الحياة الاجتماعية في هذه المدينة إلى مستويات أكثر رقياً من تلك التي شهدتها المراكز الحضرية الأخرى، خاصة مجتمعات البداوة. هذا هو باختصار حال البيئة الدينية والاجتماعية التي ولد محمد ﷺ وعاش فيها حتى نزول الوحي، وما تبعه من انتشار للإسلام.

تعرض المؤلف مولد وحياة الرسول محمد ﷺ بنفس الطريقة والمنهج

التاريخي النقدي الذي يقبله الغرب، ولكنها تأخذ في الاعتبار في نفس الوقت أن المسلمين يعتبرون أن حياة محمد ﷺ وأقواله وأفعاله جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية، التي تقوم على القرآن والسنة. كما تعرضت لزواجه ﷺ من السيدة خديجة، التي جذبت استقامته انتباهها، فكلفته بتجاريتها وأرسلت معه ميسرة، الذي حكى لها بعد عودته عن المعجزات التي أتى بها الرسول ﷺ في رحلته، واستشارت فيها قريباً لها هو ورقة بن نوفل، الذي أكد لها أن هذه الصفات تنطبق على النبي، الذي بشرت به الكتب المقدسة، والذي سوف يظهر في بلاد العرب. فرحت خديجة بهذا وعرضت الزواج على محمد ﷺ فقبل وأنجب منها أربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وولدين ماتا.

كان يسر الحال الذي جاءه من زواجه بخديجة، سبباً في أن يستطيع محمد ﷺ التفرغ لحياة تلائم ميوله الطبيعية: الخلوة والتأمل، ثم تحكي المؤلفة كيف هبط الوحي على النبي في غار حراء، كما تروي الروايات العربية، وقد جاءت في هذا السياق التاريخي متسقة ومتوافقة، والأهم أنها لم تبذر أي بذرة شك في بعثة الرسول

ﷺ، وفي نزول الوحي عليه، وفي أن القرآن الكريم هو كتاب الله المنزل للعالمين. وقدمت المؤلفة للهجرة النبوية وهجرة المسلمين الأولى والثانية، ووصفت محمدا ﷺ في المدينة بأنه كان نبيا وكان زعيما سياسيا عبقريا، استطاع أن يقود الأمة منطلقا من المدينة، رغم كل مشاكلها، ورافعا شأن الأمة إلى عنان السماء.

كما أشارت إلى أول ميثاق للتعامل مع الآخر في التاريخ، وهو "صحيفة المدينة" التي رتبت حقوق المسلمين وغير المسلمين في دولة الإسلام الجديدة. ورغم هذا فقد عرضت الوضع في المدينة كما يلي: "في المدينة اعتنق الوثنيون الإسلام وأظهر المسيحيون تعاطفهم مع النبي، أما اليهود فظلوا متصلفين ومعادين رغم العهد الذي أشرنا إليه". وفي الكتاب كله نلمح حرص المؤلفة على إظهار أن اليهود ظلوا دائما يلقون معاملة حسنة من الإسلام، ولكنهم لا يردون هذه المعاملة بمثلها، وإنما كان ديدنهم دائما الغدر ونقض العهود، وهو بالتأكيد من المواقف الشجاعة، التي يقل من يقررها في الغرب، خوفا من التهمة الشائعة بمعاداة السامية، التي أصبحت تخيف الأقلام جميعها هناك.

الرأي الوحيد الذي تأثر بما يكتبه المستشرقون هو ما روته المؤلفة عن فترة صدر الإسلام، وبالتحديد غزوة بدر، فقد قالت: "ودفعت ضرورة توفير احتياجات الجماعات محمدا إلى مهاجمة قافلة ثرية لمكة، كانت متجهة إليها من الشام. وعندما علمت قريش أرسلت جيشا يغيثها مكونا من ألف رجل..". فالمستشرقون عادة يرون أن محمدا والمسلمين كانوا يهاجمون القوافل ويقطعون الطريق لتوفير الطعام والشراب للمهاجرين، وهو ما لم يكن صحيحا، وإنما كانت هناك أسباب أخرى يرغب عن ذكرها هؤلاء ولم تذكرها المؤلفة أيضا.

رغم أنها بعد ذلك تروي معركة بدر من الوجهة الإسلامية، وأن الله عزز فيها المسلمين بجند من عنده، كما يؤكد القرآن الكريم، ليس هذا فحسب، بل إنها عندما تعرضت إلى قضية الجهاد في الفصل العاشر من الكتاب، نفت عن غزوة بدر أن تكون بهدف قطع الطريق على قوافل مكة، وإنما كانت حربا للدفاع عن النفس والمال.

**تفرد المؤلفة جزءا خاصا بمحمد ﷺ النبي والإنسان، وتقرر فيه إن شخصية محمد هي إحدى الشخصيات الأكثر تفردا**

وجهه المغطى، وذلك من خلال ومضات بريق في عينيه. من يريد أن يشوه هذه الشخصية العظيمة فهو يضعه عادة في مقارنة بالمسيح. ولكن الشخصية الزاهدة للمسيح ليس لها أي علاقة بإنسانية محمد ﷺ.

فنبى الإسلام الذي كان يخوض الحروب، ويشن الغارات ويمارس القصاص، يجب النظر إليه داخل البيئة التي وجد فيها، والذي كانت طريقة حياته فيها هي القاعدة. فقد كان "رجلا مثل جميع الرجال"، رجلا مصطفى ولكنه في جميع الأحوال رجل، وقد أكد القرآن على هذا المفهوم مرتين. المرة الأولى في سورة الكهف الآية ١١٠: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ والمرة الثانية في سورة الإسراء الآية ٩٣: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾.

والفارق بينه وبين الآخرين من البشر هو أن الله اصطفاه وكلفه بتبليغ رسالته. وجعل منه خاتم الأنبياء! وهناك من لا يزال يرى في القرآن مجموعة من القواعد الدينية من أصول مسيحية ويهودية، تعلمها محمد ﷺ من خلال اتصالاته مع شخصيات كبيرة تنتمي إلى هذين الدينين،

من بين أعظم الشخصيات التي صنعت تاريخ البشرية. ومعجزاته، بالنسبة لمن يؤمن به وبالنسبة لمن لا يؤمن، تعد من الأحداث المذهلة. ولكنه كان هو نفسه المعجزة الأكبر، شخصيته وحياته. ولأن ما تقوله ريتا دي ميليو في هذا الموضوع يستحق أن يعرض بالكامل، فهو ممتع كتابة وأسلوبا، فسوف نعرض له في ما يلي مع بعض الاختصار غير المخل بالمعنى والسياق. في مكة كان رجلا وديعا، يكاد يكون زاهدا في تعبه وفي عزلته الروحية. وكان رب بيت مثاليا طوال عشرته التي دامت خمسة وعشرين عاما من الحب مع زوجته التي كانت تكبره، خديجة.

ورغم ما تعرض له من عداوة واستهزاء، فإنه ظل واثقا من نفسه ومن النصر النهائي لربه، ويجيب بهدوء ليهزأ من الكفار بآيات من القرآن وهو يهددهم بنار السعير. وفي المدينة تحول إلى رجل سياسي محنك، حتى أصبح رئيس دولة ومحاربا لا يشق له غبار. من ذا الذي يستطيع أن يتعرف في هذا الواعظ الوديع الذي كان في مكة على الفارس المقدام الذي يقود جيشه لفتح الجزيرة العربية وما خلفها؟ يحكى أن النبي كان يمكن التعرف عليه من بين جميع المحاربين، رغم

قابلهم في مكة وفي المدينة. ومنها لفق محمد قرآنه. أي أن هؤلاء يرمون محمداً بالانتحال.

وفي هذا المجال فإنني أطرح الأسئلة التالية. لماذا كان عليه أن يخترع كذبة ضخمة مهولة مثل تلك؟ لجنون العظمة، حبا بالسلطة؟ في مكة، حيث لم يحقق الكثير من النجاح وواجه العديد من الآلام، لم يكن ليلتزم بهذا الصراع الذي كان يبدو بلا مخرج، إلا مقتنعا بصحة رسالته. كيف استطاع أن يفحم بآيات القرآن اللاذعة الكاذبين والمنافقين إذا كان هو نفسه كاذبا؟ وإذا كان هو الذي ابتدع هذا الإسلام من بنات أفكاره فلماذا لم يجعله بسيطا سهلا مقبولا من غالبية قومه؟ هؤلاء القوم الذين كانوا مشركين وثنيين وأتى لهم بدين توحيدي؟ بالإضافة إلى الديانة التوحيدية لماذا فرض عليهم صيام رمضان وهو أمر شاق جدا في شبه الجزيرة العربية حارقة الحرارة؟ وكيف أمكن أن يصبح من أصدقائه أشخاص من نبلاء الروح ومن الموهوبين بالذكاء الراقى إذا لم يكونوا يعتبرونه من الصادقين؟ وكيف استطاع وهو الأمي أن ينتج عملا على قدر كبير من القيمة أدبيا ولغويا؟ كم

من الأسئلة التي يمكن طرحها وكم من الإجابات!

ولكن هذا العرض هو عرض إسلامي وليس دراسة نقدية. وبالنسبة للمسلمين فإن محمدا ﷺ هو نبي شديد النقاء والصدق، رسول الله، قدوة للمؤمنين، وخاتم للنبيين. على اتهامه بالقسوة يمكن الرد ببساطة: لقد عاقب محمد ﷺ بقسوة أفرادا ارتكبوا جرائم، أو أعداء عنيدون مثل القلائل (ستة) من القرشيين عند فتح مكة، واليهود الذين خانوه.. واستعمل كل الوسائل التي أتاحها له المجتمع آنذاك للدفاع عن جماعته ودعمها. حارب بإمكانيات متواضعة وبمعاونة قليلة حتى لا يسقط أمام الأعداء والمنافقين الذين كانوا يريدون له الخراب.

ولكي يواجه احتياجات جماعته لجأ إلى شن الغارات، التي كانت تعتبر مشروعة في شبه الجزيرة العربية منذ أزمنة بعيدة وليست قابلة للحكم عليها بمقاييس أفكارنا الغربية. والحروب التي قام بها، سواء دفاعية أو هجومية، كانت لنشر دعوته. ولكن هذا العمل الوحشي في حياة الإنسانية حاول هو أن يجعله أقل وحشية. فقد أمر جنوده: "لا تقتلوا شيخاً

فانياً لا تقتلوا امرأة لا تقتلوا صغيراً  
رضيعاً لا تهدموا بناءً لا تحرقوا شجراً لا  
تقطعوا نخلاً وأحسنوا".

كم هو فارق كبير بين هذا وقلة من  
المتطرفين في إحدى دول شمال أفريقيا  
الذين لم يتورعوا ولا يتورعون عن قتل  
البشر من جميع الأعمار والملل. لقد قتلوا  
طفلاً في مقبرة! ولكني لا أزيد على هذا.  
ولكن هل يكون "المتطرفون" هم فعلاً من  
يرتكبون مثل هذه الجرائم البشعة؟ أم كما  
يرى البعض، هم "آخرون" لهم مصلحة في  
إظهار المسلمين في زي القتلة السفاحين؟  
من يدري! ومع ذلك لا بد من الاعتراف  
بأن التطرف يؤدي إلى كثير من التجاوزات  
التي لا تخطر على البال! يحلو لبعض  
الكتاب الغربيين على غير علم أن يتندروا  
بالزيجات المتعددة، التي عقدها محمد ﷺ  
في المدينة ويركزون على الجانب الشهواني  
فيها.

أولئك الكتاب لا يضعون في حسابهم،  
أو لا يعرفون، العادات السارية في زمن  
النبي، حيث كان الزواج يتم بسهولة فائقة  
وينفسخ من دون قيود، وتعدد الزوجات  
كان هو القاعدة العامة. والإسلام الذي  
كان يدعو إليه محمد ﷺ وضع للزواج

قواعد لم تكن موجودة قبله. وينبغي  
التأكيد مع ذلك على أنه تقدم في العمر،  
وحتى الخمسين من عمره، كان مخلصاً  
لخديجة. وبعد أن ماتت عقد عدداً من  
الزيجات الكثير منها كان لأهداف  
سياسية. فجميع زوجاته (ومن بينهن  
التاسعة وهي يهودية) كن جميعهن أرامل،  
وواحدة فقط هي التي كانت صغيرة السن،  
وهي عائشة بنت أبي بكر، وقد تزوجها  
عذراء.

وكانت بعض الزيجات أيضاً بدافع  
انجاب ولد ذكر، لأن من أنجبهم من  
خديجة وماريا القبطية ماتوا. ومن ثم فقد  
تحمل مسؤولية وأعباء أسرية ضخمة، رغم  
قلة موارده المالية، ومع ذلك لم يستخدم  
الحق في الطلاق. وعلى أي حال فإن  
الإسلام لا يحبذ الطلاق. وهناك كثير من  
الآيات القرآنية التي تدين الطلاق ضمناً،  
وكثير من الأحاديث تؤكد على هذا المعنى،  
مثل: "تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز  
له العرش". "أبغض الحلال إلى الله  
الطلاق، ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من  
الطلاق".

ولم يختلف سلوك محمد في هذا عن  
سلوك الأنبياء القدامى، مثل داوود



وموسى، الذين لم يفكر أحد مطلقاً في إدانتهم بسبب تعدد الزوجات، بنفس القدر الذي حدث مع نبي الإسلام! رغم السلطة التي اكتسبها في المدينة لم يكن محمد ﷺ أبداً رجلاً ثرياً، أو سيداً عظيماً، أو ملكاً له قصور مشيدة وثياب فاخرة، لا لنفسه ولا لمن يعول. كان رجلاً معتدلاً مقتصداً. يحكي التراث أن طعامه اليومي كان يتكون معظمه من بضع ثمرات تمر وكوب من الحليب. وذات يوم دخل عليه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، الذي أصبح ثاني الخلفاء المسلمين، وسأله: أما أنا فاشهد أنك رسول الله ولأنت أكرم على الله من قيصر وكسرى وهما فيما هما فيه من الدنيا وأنت على الحصير قد أثر في جنبك!! فقال الرسول ﷺ: أما ترضى أن يكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟! وقد بنى لنفسه في المدينة في بداية هجرته إليها مسكناً واسعاً بسيطاً له فناء كبير، حيث كان يعقد الاجتماعات مع المؤمنين لإبلاغهم بالوحي الإلهي، وإقامة صلاة الجماعة، وإعطاء الأوامر من كل نوع سواء ذات الطابع الديني أو المدني أو الحربي، حيث كان محمد يستقبل السفارات التي تأتي للتعرف عليه وتقديم الهدايا له، حيث

كانت تعيش زوجاته. أما عن الثروات فكان يستطيع الحصول على الكثير منها ولكنه لم يكن يريد. حذره ربه من هذا في كثير من سور القرآن. كان حب النبي للضعفاء حبا يضرب به المثل، سواء من الرجال أو الأطفال، من الفقراء واليتامى.

فقد كان هو فقيراً يتيماً. وفي هذا المجال يكفي أن نذكر أقواله التالية: "خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت فيه يتيم يساء إليه، أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين، ويشير بأصبعيه". "من مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنة" لكل أمر مفتاح، ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء، وهم جلساء الله يوم القيامة". أما حبه وعطفه على الحيوان فيمكن أن نلخصه في القصة التالية: ذات يوم نام النبي وعندما استيقظ وجد قطاً قد تسلل إلى كم ثوبه الواسع ونام هو الآخر، فتركه ولم يتحرك حتى لا يزعجه، إلى أن استيقظ القط وانصرف من نفسه.

محمد ﷺ، النبي والإنسان، بضعف أي كائن بشري، وبالقوة التي أمده بها الإيمان العميق برسالة الرسول الذي بعثه الله، كان بلا شك، وهو ما أكدته وأشدت عليه لأنني

مؤمنة به، من أعظم الشخصيات في التاريخ الإنساني. فهو لم يكن وحسب صاحب دعوة لديانة توحيدية، وإنما كان مناديا بالأخلاق السامية. نصر الضعيف على القوي، والفقير على الغني وحماية المعدمين وأشار إلى أن الغاية الأخيرة هي الحياة الخالدة. ووصل إلى أرقى مراتب الأخلاق عندما راح يبلغ ما أرسله إليه ربه. وكان يدعو: ﴿قُلْ إِنْ مَلَائِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ الأنعام: ١٦٢-١٦٣، د. حسين محمود، الشرق الأوسط، ٢٠/٩/٢٠٠٩ .

دامت خمسة وعشرين عاما من الحب مع زوجته التي تكبره، خديجة، ورغم ما تعرض له من عداوة واستهزاء فإنه ظل واثقا من نفسه ومن النصر النهائي لربه، فنبى الإسلام الذي كان يخوض الحروب، ويشن الغارات ويمارس القصاص، يجب النظر إليه داخل البيئة التي وجد فيها، والذي كانت طريقة حياته فيها هي القاعدة، فقد كان رجلا مثل جميع الرجال، رجلا مصطفى ولكنه رجل في كل الأحوال، وقد أكد القرآن على هذا المفهوم مرتين..".

#### ❖ جهاد النبي محمد ﷺ في كتاب ريتا دي ميليو:

أما عن حروب الرسول ﷺ خلال المرحلة المدنية، فليس من شرح أفضل من ذلك الذي قدمته ريتا دي ميليو "الكاتبة المستشرقة المسيحية الكاثوليكية الملتزمة، في آخر كتبها المعنون "الإسلام.. ذلك المجهول في الغرب"، حيث تقول هذه الباحثة الموضوعية في سيرة محمد عليه السلام ما يلي: "في مكة كان رجلا وديعا، يكاد يكون زاهدا في تعبده وفي عزلته الروحية.

وتضيف "دي ميليو" في موضوع اتهام نبي الإسلام ﷺ بالقسوة: "لقد عاقب محمد بقسوة أفرادا ارتكبوا جرائم، أو أعداء عنيدون مثل القلائل (ستة) من القرشيين عند فتح مكة، واليهود الذين خانوه.. واستعمل كافة الوسائل التي أتاحها له المجتمع آنذاك للدفاع عن جماعته ودعمها.. حارب بإمكانات متواضعة وبمعاونة قليلة حتى لا يسقط أمام الأعداء والمنافقين الذين كانوا يريدون له الخراب.

ولكي يواجه احتياجات جماعته لجأ لشن الغارات، التي كانت تعتبر مشروعة

وكان رب بيت مثاليا طوال عشرته التي

في شبه الجزيرة العربية منذ أزمنة أبعد، وليست قابلة للحكم عليها بمقاييس أفكارنا الغربية. والحروب التي قام بها، سواء الدفاعية أو الهجومية، كانت لنشر دعوته، ولكن هذا العمل الوحشي في حياة الإنسانية، حاول هو أن يجعله أقل وحشية، فقد أمر جنوده بقوله: "لا تقتلوا شيخا فانيا، ولا امرأة، ولا صغيرا رضيعا، ولا تهدموا بناء، ولا تحرقوا شجرا، ولا تقطعوا نخلا، وأحسنوا كما أحسن الله إليكم".

#### ♦ عقدت فصلا في كتابها بعنوان: محمد النبي والإنسان:

تقول المستشرقة الإيطالية في فصل عقدته في كتابها بعنوان: محمد النبي والإنسان: "بضعف أي كائن بشري، وبالقوة التي أمد به الإيمان العميق برسالة الرسول الذي بعثه الله، كان بلا شك، وهو ما أوكدته لأنني مؤمنة به، من أعظم الشخصيات في التاريخ الإنساني. فهو لم يكن وحسب صاحب دعوة لديانة توحيدية، وإنما كان مناديا بالأخلاق السامية، نصر الضعيف على القوي، والفقير على الغني، وحماية المعدمين.. ومن يريد أن يشوه هذه الشخصية العظيمة فهو يضعه عادة في

مقارنة بالمسيح، ولكن الشخصية الزاهدة للمسيح ليس لها أي علاقة بإنسانية محمد".

إن ما يمليه الإيمان التوحيدي الحق، اليهودي أو المسيحي أو الإسلامي، هو احترام عقائد البشر الدينية والروحية، التي تلتقي لدى كل منصف في روحها الإنسانية وخطابها المتسامح، وهي عند كل متعمق متألق وممتور، طرق إلى الله، إذ ليس معقولا أن يكون للخلق الواحد مئات الآلاف من المسارات الموصلة إليه، ولا يكون لخالق الخلق طرق بعدد مخلوقاته على قول المتصوفة، أما المتعصبون من ذوي العقل الضيق والرؤية السطحية، فإيمانهم من طينة عقلهم ورؤيتهم، ظاهري يظلم المعتقد حقه وجوهره.

ومن العلمانية ما يعلم المرء شديد الاحترام للعقائد الروحية والدينية على السواء، فالخلاف ليس مع الأديان، إنما مع من يريد تطويعها لمصالحه وأهوائه الدنيوية ويحرفها عن مساراتها الأصلية، كما من الليبرالية ما يرشد المرء إلى أن من الحرية المقدسة، حرية المعتقد، من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ومن حدث نفسه باحترام الحق في الكفر، فلا ريب في أنه

### ❖ توصيات البحث:

بما أن العالم الغربي معنيٌّ بعالمنا حيثُ صدرَ في العام ٢٠٠٨م خمسة آلاف كتابٍ عن العالم الإسلامي والعربي- كما ذكرَ د.باسم خفاجي- غيرَ المقالاتِ والندواتِ والأبحاثِ العلمية، ونظراً لتأثرنا بنظرةِ هذا العالمِ الغالبِ إلينا فلا محيدَ عن محاولةِ كسبِ منصفيه وعقلاءِ مفكريه وكتّابه، وهو أمرٌ تكادُ تخلو منه جوائزُ المسلمين التي تلتفتُ للبارعين في العلومِ التطبيقيةِ وتتسى المنصفين من المفكرين والكتابِ مع عظمِ أثرهم على القرارِ في بلدانهم، ومن المقترحاتِ الممكنةِ لردمِ هذه الفجوة:

١- تخصيصُ جائزةٍ سنويةٍ مستقلةٍ بعددٍ فروعٍ لمن ينصفُ الإسلامَ ديناً ومقدّساتٍ وقضايا ورجالات؛ وتمنحُ لكتّابٍ أو باحثين غربيين، وما أحرانا بإكرامِ عقلاءِ الغربِ المتعاطفين.

٢- إضافةُ فرعٍ إلى الجوائزِ الإسلاميةِ القائمةِ لمن ينصفنا من مفكري الغرب؛ كجائزةِ الملكِ فيصل والشيخ زايد والعويس والباطين وجائزةِ الدولةِ في مصر والأردن وغيرها؛ ولو اقتضى ذلكُ تعديلَ لوائحها.

قرنه باحترام الحق في الإيمان. ثمّة من المسلمين السابقين، من يدخل في علاقة مع الغرب موطنه الجديد، بشكل مختل ومرضي، قائم على الانبهار المبالغ به بالآخر وقيمه، في مقابل احتقار الذات الشديد والخجل منها، والانبهار المتطرف كما احتقار الذات المتشدد كلاهما مفض إلى طريق واحد ضيق ودائري يجعل صاحبه يلف حول نفسه غير قادر على النظر إلى أبعد من أرنبه أنفه، وقد كان يفترض بالداخل إلى معتقد أن لا يثير جلبه كما الخارج منه، فلا أحد يمكنه الوثوق بالحالة الإيمانية، في تقلبها وضعفها وقابليتها الدائمة للمراجعة، ولهذا فإن مجرد تحويلها إلى حالة إعلامية، سينفي عنها كل مصداقية.

وأعود فأقول، بأن من حق الجميع أن ينقد السلوك البشري، لكن المبادئ التي تزكيها الفطرة البشرية، تجعل المس بالعقائد والأديان والأنبياء والرسل والقادة الروحانيين الذين نالوا حظوة ورمزية لدى أتباعهم، سلوكاً غير مقبول ومستهجناً لا يمكن نسبته لأي خطاب إنساني حقيقي، دينياً كان أو علمانياً. أنظر "جريدة السياسة الكويتية ١٢/٤/٢٠٠٨".

- ٣- استضافة المنصفين من الغرب في المهرجانات الثقافية ومعارض الكتاب والجامعات والنوادي الأدبية؛ وكم هو جميل أن تكون الاستضافة ذات طابعين: رسمي وشعبي.
- ٤- ترجمة كتب ومقالات ومواقع هؤلاء الكتاب إلى اللغة العربية وغيرها من لغات المسلمين.
- ٥- إهداء نتائجهم الفكري إلى مراكز البحث الغربية.
- ٦- الإفادة من هؤلاء المنصفين في مراكز الدراسات والبحوث.
- ٧- إشراك الكتاب والمفكرين العقلاء في خلق النقاش الخاصة باستشراف مستقبل أمتنا أو التخطيط للعمل المثمر في الغرب.
- ٨- طلب رأي المنصفين في القضايا الإسلامية التي يثيرها الإعلام الغربي.
- ٩- تخصيص أوراق عمل لهم في المؤتمرات والحوارات التي ترعاها بلاد المسلمين في الغرب أو معه.
- ١٠- عقد لقاءات معهم ضمن جدول أعمال الوفود الإسلامية الزائرة على مستوى الرؤوساء فما دون.
- ١١- تيسير زيارة الباحثين المعتدلين للبلاد الإسلامية لتوثيق العلاقة معهم.
- ١٢- تمويل المراكز ووسائل الإعلام التي يمتلكها أي منصف لأمتنا.
- ١٣- إشهار جوائزنا الخاصة بمفكري وكتاب الغرب إعلامياً حتى تكون حافزاً للبحث المنصف.
- ١٤- التغاضي عن بعض المواقف لهؤلاء المنصفين، فالكمال منتف مع المسلم فكيف بغيره؛ وهذه المسألة تحتاج ضبطاً شرعياً له أهلُه الذين يقدرون المصلحة الشرعية.

